كيف رأيت إخوان الصفا في الدعاية والإقناع

الشيخ موسى السبيتي

إن الغموض الذي أحاط بهذه العصابة الطاهرة لم يكن باعثا عليه شيء مريب سوى أغراضهم السياسية. فمما لا ريب فيه عند كل من يطالع رسائلهم بدقة, أن القوم لم يكونوا راضين عن الوضع السياسي الماثل لديهم آنذاك، ولم تكن خطط الخلافة ببغداد واقعة منهم موضع القبول.

كانت للقوم آمال وأحلام كانوا بها جد مولعين, ولم تكن تلك الآمال أخلية جوفاء أو أحلام شعراء هائمين بما وراء العالم المادي, وإنما كانت عند القوم فكرة وضعوا لها الأسس, وساروا في سبيل تنظيمها سيراً مطرداً، ولكنه سير فيه الكثير من التعقل والحكمة, وفيه كثير من الآراء المقبولة الملائمة, وفيه كثير من الإقناع المؤثر، ولقد كانت دعوتهم منظمة, والخطة السياسية كانت مكتومة حفظاً عليها أن تستأصلها حكومة بغداد قبل ان يتم تكوينها وخشية أن تقضي عليها هي في المهد.

كانت دعايتهم تتفق وجميع الأهواء حيث كانت هذه العصابة الطاهرة واسعة الثقافة كثيرة التجارب, عندها من الحنكة السياسية ما يعرفها كيف تسير برفق و تعمل بهدوء وتظفر بنجاح.

فالذين تستهويهم مباهج الحياة تجد عندهم ما يستميل طبعه ويغري قلبه. والذين ألحت عليهم نوائب الدهر وسخطوا على الحياة وبرموا بالأحياء يجد عندهم مساواة وإيثارا. والذين نقموا على الظلمة تصرفهم السيئ وجشعهم الفاضح ويحلمون بمثل عليا في العدل والتناصف يجدون ما يتمنون من خير ويطلبون من عدل بأسلوب فاتن جذاب. وقد كانوا يعلنون ان الدين الصحيح والخلق المرضي والصداقة الكريمة وكل ما يتصل بالمعاني الإنسانية السامية موجود عند إخوان الصفا لا يتعداه إلى غيرهم. وربما خيلوا للقارئ إنهم مجردون من كل هوى شخصي, وإنهم طائفة تلذ لها التضحية في سبيل الله وفي سبيل إنقاذ الناس من ظلمات الجهالة واستفاذ الشريعة من تلاعب الأهواء والسير بها معتمدة على سناد متين من التراث اليوناني الخالد, ففي ج ٢ ص ٤٣ يقولون (فهلم يا أخي إلى صحبة إخوان نفسانين وأقران لك روحانيين يريدونك ولا يأخذون منك ويخلصونك مما وقعت فيه بأن تدخل في صحبتهم وتسمع أقاويلهم لتفهم مذاهبهم وتنظر في كتبهم وتعرف طريقتهم وعلومهم وتعمل بسنتهم وتسير بسيرتهم لعلك تنجو بصحبتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون)

وإذا حدثوك عن معاشرتهم لا يتركونك تسير على غير قصد بل يبسطون أمامك نفوسهم عارية و يحدثونك بلغة سهلة سائغة عن عقيدتهم التي تسايرهم من البدء إلى الختام في الناس

أجمعين كي تطمئن بهم وتثق بأنهم بريئون من الغدر والأخذ على غرة فهم يمقتون من يريد بالناس شراً من أجل خلاف مذهبي أو هوى سياسي ففي ص ١٠٨ج ٤ (ومن الناس من يرى و يعتقد في دينه و مذهبه الرحمة والشفقة للناس كلهم ويرثي للمذنبين ويستغفر لهم ويتحنن على كل ذي روح من الحيوان ويريد الإصلاح للكل وهذا مذهب الأبرار والزهاد والصالحين من المؤمنين و هكذا إخواننا الكرام) إلى هنا عرفوا القارئ صفاء سرائرهم ونقاء ضمائرهم وطهارة مآربهم في سيرهم على صراط واضح لا عوج فيه ولا انحراف وطبعاً وثقت بهم النفوس واطمأنت إليهم فبقي عليهم إتمام المهنة و هي انتقاص من إليهم الأمر و بيدهم تسيير الدولة و لن يستطيعوا أن يعلنوا مثالب القوم وعجزهم عن القيام بما يجب في إدارة الدولة وولاية أمر الناس فان مواثبة الانتقاد الجارح والتسرع إلى الانتقاض الذي هو أقرب الى السباب المعيب الشائن قلما يصغى إليه بسمع ويثني اليه انتباه عند الطبقة المثقفة وان كان فيه كثير من الحق والصواب وهب انه محض الحق والصواب فالبذاءة و السباب لغة لها أهلها هم غير المثقفين.

إذا انتقدوا لا يذكرون أناسا بأعيانهم وأسمائهم وإنما يذكرون مبادئ ومعتقدات ويبطلون مذاهب وآراء في ثنايا كلمهم العذاب الشهي ولو فتشت عن هذه المعتقدات في كتب المذاهب والأديان لعلمت أصحابها وعرفت أن إخوان الصفاء يحاولون قلب بغداد رأسا على عقب بهدم الأسس التي بنيت عليها بغداد وقام عليها دعاة العباسيين فإخوان الصفا في انتقاد هذه المذاهب وفي بيان المزايا التي يجب أن تكون في الخليفة يعني خليفة صاحب الشريعة يتركونك تفكر في أشياء وينتقل بك الذهن إلى استعراض طائفة من الأفكار وطائفة من الخلفاء الذين أخذوا حظهم من الوجود أو حدثك التاريخ عنهم بصدق وروى لك حياتهم بجلاء وتكون أنت الذي تسدد سهام النقد وتحمل على أساليب الحكم ببغداد وتصرف الوزراء وتلاعبهم بأشياء الدولة ذلك التلاعب المنكر من كل ذي دين ووجدان.

واستمع ما يقولون في الرسالة الحادية عشرة ص٤٠٦ واعلم ان في الحيوان ملوكا ورؤساء بعضهم جائر معتد يأخذ أموره بالقهر والغضب والظلم كأنواع السباع والوحش فهي في غاية الذم وقلة الانتفاع في القرب منها بل الأولى الهرب منها والبعد عنها وإذا كان كذلك في الحيوان فكيف لا يكون في الإنسان وبهذا البرهان إن كل جبار وسلطان ظهر فيه الجهل ولم يوجد فيه العلم فهو مثل السباع والوحوش تأخذ من زمانه ما قدر عليه ومن وقته ما وصل إليه والمجاورون له في تعب ونصب وخوف منه ومشقة مما يحملهم من مؤنته والذين هم الخلفاء بغير هذه الصفة مثل الأنبياء والأئمة والتابعين لهم بإحسان الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر هم خلفاء الله التابعون لأمره وبهم صلاح العالم وربما كانوا ظاهرين بالعيان موجودين في المكان في دور الكشف وبالضد من ذلك في دور الستر.

بل لا يكتفون بما شوهوا من صورة الخلافة القائمة في عصرهم وبأعمال الخلفاء التي هي في جملتها استهتار وخروج عن المألوف الإسلامي بل تعدوا في الدعاية إلى مواعيد جميلة تلوح عليها للصدق دلائل وسمات وهي أن هؤلاء الفتية الطاهرة كانت في دور انحطاط من الدولة العباسية أيام استيلاء البويهين على زمام الدولة وحاضرة العالم الإسلامي وكانت الخلافة قد فقدت كثيرا من مظاهر أبهتها وضعفت في نفوس الدهماء مكانتها فكانت عامة الناس

تندب جلال الخلافة الدارس وعزها الدائر وتظن أن نجمها شارف الأفول وأذن عهدها بالزوال حيث أن البويهين طلعوا على الناس بأعمال لا يرضاها عباسي وغيروا هيكل الدولة تغييراً بعيداً عنها كل البعد وفي هذه البيئة الآسفة الحائرة في مصير الأمور انظرا كيف طلع إخوان الصفاء مستندين إلى تنجيمهم وسحرهم بآراء (وقد نرى أيها الأخ البار الرحيم أيدك الله بروح منه أن قد تناهت دولة أهل الشر وظهرت قوتهم وكثرت أفعالهم في العالم في هذا الزمان و ليس بعد التناهي في الزيادة إلا الانحطاط والنقصان واعلم بأن الدولة والملك تنتقلان في كل دهر و زمان و دور و قران من أمة ومن أهل بيت إلى أهل بيت ومن بلد إلى بلد واعلم يا أخي ان دولة الخير يبدأ أولها من قوم علماء وفضلاء يجتمعون على رأي واحد ويتفقون على مذهب واحد ودين واحد ويعقدون بينهم عهداً وميثاقاً أن لا يتجادلوا ولا يتقاعدوا عن نصرة بعضهم بعضاً ويكونون كرجل واحد في جميع أمورهم وكنفس واحدة في جميع تدبيرهم).

وإذا فرغوا من حديثهم ودعواهم إلى الفضيلة حبس عليهم الأعمال الصالحة لا تجد مغرماً غيرهم يلتفتون نحو العالم الآخر وبيان ان المقصود من الإنسان أن يعمل لدار البقاء ولا يتهالك هذا الجسد الدائر السريع التحلل ولا بد للعاقل أن يقبل على إصلاح الجزء النفيس من الإنسان وهو الروح الجديرة من الإنسان بالعناية والاهتمام, والعناية فيها هو الإلمام بعلوم الفلسفة وهي مجموعة في رسائل إخوان الصفا مرتبة ترتيباً منطقياً حسب استعداد الطالب, متدرجاً فيه خطوة فخطوة ومتنقلاً درجة فدرجة. فالعلوم هي التي تصفي النفوس من ادرانها وتهذبها من موبقاتها وتعرفها الواجب الذي ينبغي أن تبادر إليه وتعكف همتها عليه.

ومن دعايتهم ان إخوان الصفا يملأون مسامعك ضجة جوفاء ويذكرون لك من المعاني ما ينخدع لها الساذج الذكي وقد يبينون أن لهم أصحاباً وأتباعا من مختلف الطبقات منتشرين في البلاد, كلهم شايعوا إخوان الصفا وجروا على آثارهم , فيقولون: (واعلم أيها الأخ البار الرحيم أيدك الله وإيانا منه, ان لنا إخوانا وأصدقاء من كرامهم وفضلائهم متفرقين في البلاد فمنهم طائفة من أولاد الملوك والأمراء والوزراء والعمال والكتاب, ومنهم طائفة من أولاد الأشراف والدهاقين والتجار والنقباء, ومنهم طائفة من أولاد العلماء والأدباء والفقهاء وحملة الدين).

وهكذا على هذا المنوال يسيرون في دعوتهم ترغيباً للنفوس وتقريباً للأذهان كي لا تبدو فكرتهم غريبة عن الأوساط المهذبة في البلاد الإسلامية فتنبو الأذواق عنهم وتنفر الأفكار عن دعوتهم التي يرجون لها ازدهاراً ونضارة, وانتشاراً و قوة.

وفي الحقيقة مقدرة غريبة أوتيها هذا اللسان الأقناعي الذي يستعمله إخوان الصفا ما عهدنا له ضريباً في اللغة العربية, فإن كل مطلع على هذه الأساليب المتنوعة, هذا التنوع البارع في الدعوة إلى المشرب الذي يرتضونه لابد أن تلين نفسه و ينقاد عصيه ويرغب في دخيلة نفسه إلى صحبة هذه الفئة من الناس الذين كتموا أسماءهم وأشخاصهم واخفوا ملامحهم وهيئاتهم ولكنهم أشاعوا في الناس نفوسهم وأشاعوا في القرون والآباد آراءهم وأفكارهم وفرضوا على الناس حبهم وتقديرهم وعقدوا بينهم وبين كل متعلم اخذ من الثقافة بنصيب صلة لا تنقطع ومودة لا نزول وكلما انتشرت الثقافة كثر أصحابهم المخلصون وتلامذتهم الشاكرون.